

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

أوردَ سبحانه هذه الآيةَ إيراداً المخاطبِ المتلطفِ المزيلِ لما عندَ القومِ مِنَ الرَّيْبِ بالقَسَمِ، فكأنَّه قال: ما لكم تَتَصَرِّفُونَ عن حَضْرَتِهِ الشَّمَاءِ وشِمْائِلِهِ الْعُلَى؟! واللَّهِ لقد جاءكم هذا الرَّسُولُ من أَنْفُسِكُمْ، أَقْبَلَ عَلَيْهِ هنا في هذه الآيةِ الكريمةِ مُسْلِيًّا له مَقَابِلًا لإِعْرَاضِهِمْ إِنْ أَعْرَضُوا بالإِعْرَاضِ عَنْهُمْ والْبَرَاءَةِ مِنْهُمْ، مُلْتَقِنًا إِلَى السُّورَةِ الْأَمْرِ بِالْبَرَاءَةِ، من كُلِّ مُخَالَفٍ، قَائِلًا مُسَبِّحًا عَنِ النَّصِيحَةِ بهذه الآيةِ الَّتِي لَا يَشْكُ عَاقِلٌ في مضمونها: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، أي: اجْتَهَدُوا في تَكْلِيفِ فِطْرِهِمْ بعدَ النَّصِيحَةِ لَهُمْ بهذه الآيةِ، ﴿فَقُلْ﴾ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ مُفَوِّضًا أَمْرَكَ إِلَيْهِ، ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾: أي: كَافِيَ اللَّهِ الْأَعْلَى الَّذِي لَا كُفَّاءَ لَهُ، عَلَيْهِ وَحْدَهُ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ وَمَالِكُ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ الْأَجْسَامِ، الْحَاوِي لِسَائِرِ الْأَجْرَامِ، صَاحِبُ الْعِظَمَةِ الْمُطْلَقَةِ⁽¹⁾.

المناسبة بين
مجيء الرسول
الرحيم،
وأمره حالة
تولي المبلّغين،
بالتوكّل على ربّ
العرش العظيم

✽ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿تَوَلَّوْا﴾: ولي: الواوُ وَاللَّامُ والياءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يُدُلُّ عَلَى قُرْبٍ. من ذَلِكَ الْوَلِيُّ: الْقُرْبُ. يُقَالُ: تَبَاعَدَ بعدَ وَلِيٍّ، أي: قُرْبٌ⁽²⁾، وَتَوَلَّى يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وبِالْحَرْفِ، فَإِذَا عُدِّي بِنَفْسِهِ اقْتَضَى مَعْنَى الْوِلَايَةِ، وَحَصُولَهُ فِي أَقْرَبِ الْمَوَاضِعِ مِنْهُ، يُقَالُ: وَلَّيْتُ سَمْعِي كَذَا، وَوَلَّيْتُ عَيْنِي كَذَا، وَوَلَّيْتُ وَجْهِي كَذَا: أَقْبَلْتُ بِهِ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْتَوَلَّيْنَاكَ قَبْلَةَ تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: 144]، وَإِذَا عُدِّي (تَوَلَّى) بـ (عن) لَفْظًا أَوْ تَقْدِيرًا،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 60/9 - 61.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

اقتضى معنى الإعراض وترك قُربه، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهِمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: 51]، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: 23]، والتولي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والانتصار، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 20]، ويقال: ولأه دُبره: إذا انهزم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ أَلَذَّابَارُ﴾ [آل عمران: 111] (1)، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: فإن أعرضوا عنك، ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه (2).

(2) ﴿حَسْبِيَ﴾: حسب: الحاء والسين والباء، أصول أربعة: العد، والحسبان، والأحسب، والأصل الرابع: الكفاية، تقول: شيءٌ حسابٌ، أي: كافٍ (3)، والمعنى المحوري: جمع ما هو منتشرٌ في حيزٍ يضمُّه، حتى يمتلئ به (4)، والحسب يستعمل في معنى الكفاية، قال تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [آل عمران: 173] أي: كافينا هو، ومنه قوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ [التبأ: 26] أي: كافياً، وتأتي بمعنى الرقيب المحاسب، كما قال تعالى: ﴿وَكُنْى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: 6] (5)، فقوله: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يجمع له كل ما يريده من سندٍ ومؤازرةٍ، ونصرٍ وتوفيقٍ، في واحد، وهو الله تعالى وحده، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافيك معرتهم ولا يضرونك، وهو ناصرُك عليهم (6).

(3) ﴿الْعَرْشِ﴾. عرش: العين والراء والشين أصلٌ صحيحٌ واحد، يدلُّ على ارتفاع في شيءٍ مبنيٍّ، ثم يُستعارُ في غير ذلك، من ذلك: العرش (7)، والعرش في الأصل: شيءٌ مُسقِفٌ، وجمعه عروش، قال تعالى: ﴿وَهِيَ خَاطِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259]، ومنه قيل: عرشت الكرم وعرشته: إذا جعلت له كهيئة سَقَف، وقد يُقالُ لذلك: المعرش، قال تعالى: ﴿مَعْرُوشَتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَتٍ﴾ [الأنعام: 141]، ﴿وَمَا كَانُوا بِعِرْشُونِ﴾ [الأعراف: 137]، أي: يَبْنُون، والعرش: شبه هُوْدَجٍ للمرأةِ شبيهاً في الهيئةِ بعِرشِ الكرم، وسمي مجلسُ السُلطان عرشاً اعتباراً بعلوه،

(1) الزاغب، المفردات: (ولي)، والفيروزبادي، القاموس المحيط: (ولي).

(2) الشوكاني، فتح القدير: 2/591.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (حسب).

(5) الزاغب، المفردات، والفيروزبادي، القاموس المحيط: (حسب).

(6) الزمخشري، الكشاف: 2/223، والشوكاني، فتح القدير: 2/591.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرش).

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100]، وكُنِيَ به عن العِزِّ والسُّلْطَانِ والمملكة⁽¹⁾، وَعَرَّشُ الله: ما لا يعلمه البشرُ على الحقيقةِ إِلَّا بِالْأَسْمِ، وليس كما تذهبُ إليه أوهامُ العامة، فَإِنَّهُ لو كان كذلك لكانَ حاملاً له - تعالى عن ذلك - لا محمولاً، قال ﷺ: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: 15]، وقال ﷺ: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، والعرشُ لا يقدرُ أحدٌ قدرَه⁽²⁾.

❖ الْمَغْنَى الْإِجْمَالِي:

يأمرُ الله تعالى رسوله ﷺ أَنَّهُ إِنْ تَوَلَّى عَنْهُ مَنْ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ، وامْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِهِ بِأَنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِ، أَنْ يَمْضِيَ فِي دَعْوَتِهِ لِلْحَقِّ، ويقولُ: اللهُ يَكْفِينِي جَمِيعَ مَا أَهْمَنِي لَا مَعْبُودَ لِي بِحَقِّ سِوَاهُ، اعْتَمَدْتُ وَوَقَّعْتُ بِهِ فِي جَلْبِ مَا يَنْفَعُ، ودَفَعَ مَا يَضُرُّ، وهو سبحانه ربُّ العرشِ العظيمِ الَّذِي عَرْشُهُ أَعْظَمُ المخلوقاتِ⁽³⁾.

المضِي في الدَّعْوَةِ
إِلَى اللهِ،
والتَّوَكُّلُ عَلَى
الله، آمَنَ مَنْ
آمَنَ، وكَفَرَ مَنْ
كَفَرَ

❖ الْإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

معْنَى (الفاء) فِي: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾:

الفاءُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ للتَّفْرِيعِ عَلَى إِرْسَالِ النَّبِيِّ ﷺ صَاحِبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّ صِفَاتِهِ ﷺ الْمَذْكُورَةَ، تَقْتَضِي مِنْ كُلِّ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ مِنَ الْعَرَبِ الْإِيمَانَ بِهِ وَاتِّبَاعَهُ، فَتَفَرَّغَ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ مَحْفُوقُونَ بِالْإِيمَانِ بِهِ، فَإِنْ آمَنُوا فَذَاكَ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا فَإِنَّ اللَّهَ حَسِيبُهُ وَكَافِيهِ⁽⁴⁾، وَهَذَا التَّفْرِيعُ بِاعْتِبَارِ تَفْرِيعِ أَحَدِ الْقَسْمَيْنِ، فَإِنَّ النَّاسَ مَا بَيْنَ مَتَّبِعٍ وَمَهْتَدٍ، فَهَذَا التَّفْرِيعُ تَوْجِيهٌ لَهُ ﷺ لِمَنْ يَتَوَلَّى عَنِ الْإِتِّبَاعِ.

مَنْ تَوَلَّى عَنْ
اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ،
فَالله حَسِيبُهُ،
وَالهَذَاكَ مَصِيرُهُ

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/227، والزَّاعِبُ، المفردات: (عرش)، والفِرْوَزَابَادِي، بصائر ذوي التمييز: 4/42.

(2) الزَّاعِبُ، المفردات: (عرش)، وَالْمُخْشَرِيُّ، الكَشَاف: 2/223.

(3) السَّعْدِي، تيسير الكريم الرَّحْمَن، ص: 307.

(4) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِير: 11/73.

نُكْتَةُ اسْتِعْمَالِ (إِنْ) دُونَ (إِذَا) فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، وفيه دَلُّ الشَّرْطِ بِ (إِنْ) عَلَى مُقَابِلِهِ مِنْ مَجِيءِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْمُحِبِّ لَجَلْبِ الْخَيْرِ لَهُمْ وَدَفْعِ الضَّرِّ عَنْهُمْ، الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ بِمَنْ يَتَّبِعُهُ مِنْهُمْ، فَاسْتِعْمَالُ (إِنْ) يَفِيدُ أَنَّ تَوَلَّيْتُمْ عَنْهُ مُسْتَبَعْدٌ عَقْلًا؛ لِأَنَّ فِي بَعَثَتِهِ ﷺ مِنْ ثَمَرَاتٍ لَهُمْ، وَفَوَائِدَ جَمَّةٍ، "فَكَأَنَّهُ قَالَ: مَا لَكُمْ تَتَصَرَّفُونَ عَنْ حَضْرَتِهِ الشَّمَاءِ وَشَمَائِلِهِ الْعُلَى" (1)!

فهو عَلَى فَرْضِ وَقُوعِهِ، فَعَلَيْكَ الْاسْتِغْنَاءُ عَنِ الْخَلْقِ الْمُتَّبِعِ وَالتَّوَلَّيَ، وَهُوَ إِرْشَادٌ لِمَنْ بَعْدَهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ ﷺ أَنْ يَسْتَغْنَوْا عَنِ الْخَلْقِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَطَرِيقِهِمْ الْمَوْصِلِ إِلَيْهِ ﷺ.

سِرُّ الْعُدُولِ عَنِ التَّصْرِيحِ بِالْعِنَادِ وَالْكَفْرِ، إِلَى التَّوَلَّى:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، التَّوَلَّى: الْإِعْرَاضُ وَالْإِدْبَارُ، وَهُوَ مُسْتَعَارٌ هُنَا لِلْمُكَابَرَةِ وَالْعِنَادِ وَالْكَفْرِ، فَالتَّوَلَّى هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يَجْمَعُ هَذِهِ الْمَعَانِي، وَكُلُّ مَا يَتَفَرَّغُ عَنْهَا، وَلِذَلِكَ دَلُّ الشَّرْطِ عَلَى مُقَابِلِهِ، وَهُوَ تَمَامُ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيرِ ضِدِّهِ، وَهُوَ إِنْ أَدْعَانَا بِالْإِيمَانِ (2)، كَمَا أَنَّ التَّوَلَّى يَدْخُلُ فِيهِ كِبَائِرُ الْأَعْمَالِ وَصَغَائِرُهَا؛ فَإِنْ حَصَلَ تَوَلَّى مِنْهُمْ، بِأَدْنَى مَلَابَسَةٍ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدُلُّهُ عَلَى طَرِيقِ الْاسْتِغْنَاءِ وَالْاِكْتِفَاءِ، بِخِلَافِ مَا لَوْ ذَكَرَ الْكَفَرَ وَالْعِنَادَ؛ لَكَانَ ذَلِكَ التَّوْجِيهُ وَالْإِرْشَادُ مُحْصُورًا فِي الْكِبَائِرِ دُونَ الصَّغَائِرِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ الْاسْتِغْنَاءِ بِالْخَالِقِ عَنِ الْخَلْقِ، فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا.

سِرُّ وَرُودِ (فَاءِ)، فِي الْجُمْلَةِ الْمَبْدُوءَةِ بِفَلْظِ ﴿فَقُلْ﴾:

الفَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، رَابِطَةٌ لْجَوَابِ الشَّرْطِ الْمُنْتَقِذِمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، مُفِيدَةٌ لِرَتِّيبِ الْآلِاحِقِ لَهَا لَمَّا سَبَقَهَا،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/60.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/73.

استبْعَادُ تَوَلَّيْتُمْ
عَنِ الرَّسُولِ ﷺ
بَعْدَ مَا ذَكَرَ لَهُمْ
صِفَاتِهِ وَثَمَرَاتِ
بَغْيَتِهِ

الْمُؤْمِنُ مَطْلُوبٌ
مِنْهُ أَنْ يَسْتَغْنِيَ
بِاللَّهِ تَعَالَى
عَنِ الْخَلْقِ، فِي
الْأُمُورِ كُلِّهَا

مَنْ تَرَكَ نَصْرَةَ
دِينِ اللَّهِ وَتَوَلَّى
عَنْهُ، فَإِنَّهُ تَعَالَى
كَافٍ عِبَادَهُ، فِي
وَنَاصِرٍ دِينَهُ

ترتيب اللزوم الناجع، فنتيجة تَوَلَّى المتولين، كفاية الله لرسوله ﷺ، وهذه مكافأة عظيمة للنبي ﷺ ومن معه من المؤمنين، أن يُعَوِّضَهُم الله بكفايته عن نصره الناس له.

بداغة الالتفات من الغيبة إلى الخصوص:

جاء الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ﴾ بعد الغيبة، في قوله تعالى: ﴿إِن تَوَلَّوْا﴾، وما سبقه في الآية السابقة؛ لأنَّ الجواب هنا قائم على الاستعانة بالله، وتفويض أمرهم إليه تفويضاً مباشراً لرسول الله ﷺ، لا يحتمل إلا الأمر المباشر، ولذلك جاء بعده مضمون هذا الأمر، بقوله: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾⁽¹⁾.

غرض الأمر ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، في السياق:

لما كان معنى الأمر بأن يقول: حسبي الله، وأن يكون قولاً ناشئاً عن عقد القلب عليه، أي: فاعلم أنَّ حَسْبَكَ الله، وقل: حَسْبِيَ الله، كان الغرض من القول هنا تأكيد المعلوم وترسيخه في نفس العالم به، ذلك أنَّ في هذا القول إبلاغاً للمعرضين عنه بأنَّ الله كافيه إيَّاهم⁽²⁾، وفيه إشارة إلى تعليم المؤمنين، وإسماع المتولين عنه، ففيه وعد بالنصر للمؤمنين، ووعد للمتولين.

البداغة في: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، بيان من الله تعالى أنَّ الله حَسْبُ رسوله وكافيه، في نصره على أعدائه، وفي إيصاله كذلك إلى مقامات الآلاء والنعماء، بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وإذا كان لا إله إلا هو، وجب أن يكون لا مُبدئٍ لشيءٍ من الممكنات، ولا مُحدثٍ لشيءٍ من المحدثات، إلا هو ﷻ، وإذا كان هو ﷻ الذي أرسلني بهذه الرسالة، وأمرني بهذا التبليغ كانت النُصرة والمُعونة منه مُرتَقبةً،

التفويض
قائم على الأمر
بالخطاب
المباشر، تحقيقاً
للغاية، وتوخيّاً
للمراد

وعد بالنصر
للمؤمنين،
ووعد للمتولين
للمعاندين

غاية الكفاية من
الله، والتوكل
عليه في قتال
المعرضين عن
الهدى المبين

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/60.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/74.

وَأَنَا لَا أَتَوَكَّلُ بِذَلِكَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ الْقَدِيرِ، فَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهَذَا التَّفْوِضُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ يَدْلَانِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ، لَيْسَتْ آيَةً مُوَادَعَةٍ لِلْكَفَّارِ؛ بَلْ فِيهَا الْحَثُّ عَلَى الْجِدِّ، فِي قِتَالِ الْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ⁽¹⁾.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ ﴿حَسْبِيَ﴾ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿اللَّهُ﴾:

تقديم المسند على المسند إليه، في قوله تعالى: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، دون أن يقول: (اللَّهُ حسبي)، للدلالة على قوّة هذا التفويض والكفاية وتحقق مضمونيهما، فالكافي هو الله والمفوض إليه هو الله، وفي هذا الإسناد إِبْلَاجٌ لِمُتَوَلِّينَ الْمُعْرِضِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بِأَنَّ اللَّهَ كَافٍ رَسُولَهُ شَرًّا إِعْرَاضِهِمْ وَنَاصِرُهُ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ أَعْرَضُوا بَعْدَ هَذَا، فَقَدْ أَعْرَضُوا عَنْ حَسَدٍ وَحَقٍّ، وَتِلْكَ مَظْنَةُ السَّعْيِ فِي الْكَيْدِ وَالْأَذَى⁽²⁾.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ الْجَلَالَةِ: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾:

التعبير بلفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، لزرع المهابة في القلوب، فَإِنَّ الَّذِي يَكْفِي رَسُولَهُ ﷺ، شَرُّ أَعْدَائِهِ، هُوَ اللَّهُ لَا أَحَدَ غَيْرُهُ، وَفِي إِيرَادِ هَذَا اللَّفْظِ الْجَلِيلِ، تَرْسِيخٌ فِي النَّفْسِ لِمَا يَرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعِلْمِ، بِأَمْرَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: أَنَّ اللَّهَ نَاصِرُ رَسُولِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَكَافِيهِمْ شَرُّ الْكَائِدِينَ وَالْحَاقِدِينَ، وَثَانِيَهُمَا: إِبْلَاجُ الْمُعْرِضِينَ الْمُنْصَرِفِينَ عَنِ الْحَقِّ وَتَحْذِيرُهُمْ وَإِنْذَارُهُمْ عِقَابَ اللَّهِ، وَإِهْلَاكَه إِيَّاهُمْ⁽³⁾.

عَلَّةُ الْفَضْلِ فِي: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ بَيَانِي لِلشَّأْنِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، مُقَرَّرٌ وَمُعَلَّلٌ لِمُضْمُونِ مَا قَبْلَهُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ،

تأكيد مضمون
التفويض إلى
الله، وتحقيق
الطمأنينة له

دُخْلُ لَفْظِ
الجلالة، رَزَعٌ
للمهابة في
القلوب، وتحذير
من غضب الله
وعقابه

الله يكفي
عباده، فلا إله
لهم سواه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/100، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/179.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/74.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/74.

وفيه كذلك ثناءً بالوحدانية⁽¹⁾، كما أنَّ فيه تعليقاً كاشفاً عن مفهوم الكفاية والنصرة، فكانه قال: الله يكفيك لأنه لا إله لك سواه.

دلالة موقع: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾:

التَّوَكَّلُ: التَّفْوِيزُ، وهو مبالغة في: (وَكَلَ)، وفي هذه الجملة بعد ما سبقتها، تنويه بهذه الكلمة المباركة وضرورة ذكرها مع اليقين، بمفعولها بعينها، فرسول الله ﷺ لم يُؤَمَّرَ بمجرّد التَّوَكَّلِ، كما أمر في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩)، ومن تَوَكَّلَ على الله كفاه شر أعدائه، وأحبط مكرهم وكيدهم⁽²⁾.

سِرُّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾:

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، تقدّم الجارّ والمجرور للاختصاص، أي: لاختصاص التَّوَكَّلِ عليه ﷻ دون غيره، أي: لا أتوكل إلا عليه ﷻ، فالتَّوَكَّلُ عبادة بمعنى التَّفْوِيزِ، وهذه العبادة لا تُصَرَفُ إلا لله، فهو المخصوص بها؛ لأنه هو الذي يملك مقاليد كل شيء، والأمور كلها بتصرفه ﷻ، وَمَنْ مَلَكَ شَيْئاً فبتمليكِ الله له تملك عارضة لا تملك أصالة⁽³⁾.

نكتة التعبير بالفعل الماضي ﴿تَوَكَّلْتُ﴾:

استعمال البيان الإلهي للفعل الماضي ﴿تَوَكَّلْتُ﴾، لإفادة التحقق، أي: فوّضت أمري إليه لا لغيره، وتوكلت عليه، وأمضيت هذا التَّوَكَّلَ، فقد حصل وتمّ القيام به، وقد كفاه الله شرهم ونصره عليهم⁽⁴⁾، كما أنها تفيد بيان أن المؤمن متوكل في كل أحواله على الله تعالى، السابقة واللاحقة؛ فليس التَّوَكَّلُ أمراً طارئاً، بل هو منهجٌ روحيّ إيمانيّ عقديّ، يقود صاحبه إلى الرضا والطمأنينة.

التَّوْبَةُ بِبَرَكَةِ
الكلمات
الروحانية، في
الكفاية الإلهية

التَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ
دُونَ سِوَاهُ،
مِنْ جَوْهَرِ
عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ
السَّمْحَةِ

التَّوَكَّلُ مِنْهُجٌ
رُوحِيٌّ إِيْمَانِيٌّ،
لَا ظَرْفَ طَارِئٍ فِي
قَلْبِ الْمُؤْمِنِ

(1) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 2/620، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/74.

(2) أبو حنّان، البحر المحيط: 5/534، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/74.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/179.

(4) أبو حنّان، البحر المحيط: 5/534.

بَلَاغَةُ الْعَظِيمِ ﴿وَهُوَ﴾:

ذَكَرُ الثَّنَاءِ عَلَى
الهِ بِعَظِيمِ
قُدْرَتِهِ، تَعْلِيلٌ
لِعَظِيمِ إِرَادَتِهِ

عُطِفَتْ جَمَلَةٌ: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، عَلَى مَا تَقَدَّمَهَا؛ لِثَنَاءِ
بِعَظِيمِ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، الْخَاصَّةِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ⁽¹⁾، وَلِهَذَا الْعَظْفُ بَرَاةٌ
فِي التَّعْرِيفِ بِاللَّهِ تَعَالَى، بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، فَمَنْ كَانَ هَذَا
حَالُهُ فَإِنَّهُ نَاصِرٌ عَبْدُهُ الضَّعِيفَ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ رَبُوبِيَّتُهُ، فَهُوَ كَافٍ
وَلِيِّهِ الْقَرِيبَ؛ فَفِيهِ مَعْنَى التَّعْلِيلِ لَمَّا مَضَى، كَمَا أَنَّ فِيهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّ
اللَّهَ تَعَالَى صَاحِبُ النَّامُوسِ الْأَعْظَمِ، وَالْقَانُونِ الْأَفْخَمِ، بِيَدِهِ مَقَالِيدُ
الْأُمُورِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْإِرَادَةِ الْمَطْلُوقَةِ، فَإِنَّهُ يُهَيِّئُ لِأَوْلِيَائِهِ نَصْرًا
وَكِفَايَةً، بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَجَلِيلِ أَمْرِهِ.

ذِلَالَةُ الْإِضَافَةِ: ﴿رَبِّ﴾:

مَنْ كَانَ رَبًّا
لِلْعَرْشِ، فَهُوَ
رَبُّ مَنْ دُونَهُ،
وَمَا دُونَهُ

أُضِيفَتْ كَلِمَةُ ﴿رَبِّ﴾ إِلَى ﴿الْعَرْشِ﴾؛ لِأَنَّ مِنْ مَعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ
الْخَالِقِيَّةَ، فَاللَّهُ هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ لِلْعَرْشِ، فَالْعَرْشُ مَخْلُوقٌ مِنْ
مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، لَكِنَّهُ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ، فَمَنْ كَانَ رَبًّا لِلْعَرْشِ
الْعَظِيمِ، ثَبَتَ أَنَّهُ قَدِيرٌ⁽²⁾، فَإِذَا كَانَ رَبًّا لِلْعَرْشِ، أَلَا يَكُونُ رَبًّا لِمَنْ
تَحْتَ الْعَرْشِ؟ وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ، إِلَى نَيْلِ الْعَبْدِ الْمُتَوَكِّلِ، أَرْفَعَ
الْمَنَازِلِ وَأَسَمَى الْمَرَاتِبِ؛ فَأَتَى لِعَبْدٍ تَوَكَّلَ عَلَى مَوْلَاهُ، رَبِّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ، وَقَدْ تَخَلَّى عَنْهُ مَنْ سِوَاهُ، إِلَّا أَنْ يَرْفَعَ ذِكْرَهُ، وَيُعْلِي شَأْنَهُ،
وَيَبْلُغَهُ مُنَاهَا!

نُكْتَةُ الْوُصْفِ بـ: ﴿الْعَظِيمِ﴾:

تَفْخِيمُ الْعَرْشِ
بِالْلَفْظِ، تَأْكِيدٌ
لِتَفْخِيمِهِ بِالْمَعْنَى

﴿الْعَرْشِ﴾ مَعَ كَوْنِهِ عَظِيمًا فِي ذَاتِهِ، وَصِفَ بـ ﴿الْعَظِيمِ﴾، لِلذِّلَالَةِ
عَلَى أَنَّ الْعِظَمَةَ صِفَةٌ لَازِبَةٌ لَهُ، فَهَذَا تَخْصِيصٌ لَهُ بِالْعِظَمَةِ، إِذْ هُوَ
أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ⁽³⁾، وَهِيَ تَفْخِيمٌ وَتَعْظِيمٌ بِالنَّصِّ، بَعْدَ التَّفْخِيمِ
وَالْتَعْظِيمِ بِالْمَعْنَى.

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ: 11/74.

(2) أَبُو الشُّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 2/620، وَابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ: 22/74.

(3) ابْنُ عَطِيَّةٍ، الْحَزْرُ الْوَجِيزُ: 3/100.

سِرُّ خَتْمِ السُّورَةِ بـ ﴿رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾:

جاء خَتْمُ سورة التَّوْبَةِ المباركة، بهذا الوصفِ العظيم: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، لبيان عظمة الرَّبِّ بتقديسه، وإظهار كمالِ علمه وقُدْرته، وتنزيهه عن أن يتمثَّلَ في الأوهام، أو تصلَّ إليه الأفهام، وبيان عظمة عَرْشِهِ باتِّساعه وعَدَمِ قدرةِ أحدٍ على الإحاطة بعظيم قدره، وفي ذلك كَلَّةٌ إظهارُ شَرَفِ الإيمانِ بالله، وتنبيةُ القومِ إلى المبادَرةِ باعْتِنَامِ وجودِ رسولِ الله ﷺ، بين أظهرهم لِيُسَارِعُوا إلى الإيمانِ به، والتَّشَرُّفِ بالاقْتِدَاءِ بهدْيِهِ، فيحصلَ لهم كمالُ الإيمانِ مع كمالِ الانتفاعِ برسولِ الله ﷺ، وهم يُشَاهِدُونَهُ وَيَقْتَبِسُونُ مِنْ أَنْوَارِ سُنَّتِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَسِيرَتِهِ⁽¹⁾.

وقد عانق آخرُ السُّورَةِ أوَّلُهَا، وصافح مُنْتَهَاها مُبْتَدَأُهَا، وتأكَّدَ ما فهمته من سرِّ الالتفاتِ في ﴿فَسِيحُوا﴾ [التوبة: 2]، وفي ﴿فَإِنْ تُبَتَّمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة: 3]⁽²⁾.

وهذا الخَتْمُ مناسبٌ للبدء بالبراءة من المشركين، فإنَّ الله ذو العرش العظيم، هو الَّذِي تَبَرَّأَ مِمَّنْ أَشْرَكَ بِهِ، وأعرض عنه، وحارب دينه، ففيه تهويلٌ لأمر الشُّرك، ووعيدٌ للمشركين، فهي من ردِّ آخرِ السُّورَةِ على أوَّلِهَا، فلمَّا تَبَرَّأَ مِنْهُمْ فِي الْبِدَايَةِ، أثبت سببَ ذلك في الخاتمة، فكيف يكون لربِّ العرش العظيم نِدُّ من خلقه، وكيف يكون له مناوئٌ من عباده؟!

ردُّ آخرِ السُّورَةِ
على أوَّلِهَا،
بلاغَةً عظيمةً،
في تقريرِ المعاني،
وتعليلِ الدَّلالاتِ

(1) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 5/534، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/74.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/61.



سُورَةُ يُنُسَٰ

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف

مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 18، 800 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-768-15-9

يشتمل على ارجاعات ببلوغرافية.

مج. 18: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-768-15-9

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»